الميغالوبوليس الأوروبية

المقدّمة

تُعتبر الميغالوبوليس الأ وروبية احد مراكز القوة الكبرى الثلاث في المجال العالمي. وتضطلع بدور قيادي في الاتحاد الأ وروبي وفي العالم يتجلىّ من خلال التّ حكم في المجال الأ وروبي وتنظيمه من جهة والإسهام في التحكّم في المجال العالمي وتنظيمه من جهة ثانية وذلك بفضل ما تتمتّع به من نفوذ قوي تستمدّه من التركّز العالي للسكان والحواضر والأنشطة الاقتصادية.

I- مجال تركز قوي للسكان والأنشطة الإقتصادية

تحتل الميغالوبوليس موقعا مركزيا في المجال الأوروبي وتتميز بتركز قوي للسكان والأنشطة الاقتصادية والثروة.

1 – موقع الميغالوبوليس في المجال الأوروبي

أ– إقليم يتوسّط المحاور المهيكلة للاتحاد الأوروبي

تمتدّ الميغالوبوليس الأ وروبية في شكل هلال على طول يقارب 1500 كلم، وعرض يتراوح بين 300 و400 كم ينطلق من وسط انجلترا ويمرّ بأ قطار البينيلوكس والشّ مال الغربي الفرنسي والمحور الرّيناني غربي ألمانيا وينتهي إلى إقليم لومبارديا في شمال ايطاليا. ويشكل حوض نهر الرّاين– الذي تشترك فيه ستة أقطار من ضمنها خمسة مؤسسة للإتحاد الأوروبي– القسم الأكبر من الميغالوبوليس. وتتوسّط الميغالوبوليس المجال الأوروبي وتمثّل أهمّ محور ينتظم حوله هذا المجال إ لى جانب المحاور الأ خرى وهي **القوس المحيطي*** غربا و**القوس البلطيقي*** شمالا و**القوس المتوسطي*** جنوبا و**القوس الدانوبي*** شرقا. وتشمل هذه الأقواس أقاليم متفاوتة الاندماج في مجال الاتحاد الأ وروبي وتتراجع درجة الاندماج في اتجاه الأقاليم الطرفيّة في شرق الاتحاد وجنوبه وفي بعض أقاليمه الغربية والشمالية [1]. وتتّجه الميغالوبوليس إلى التّمدّ د في اتجاه الشرق مستفيدة من التوسيع الخامس للاتحاد وذلك على طول محور ينطلق من همبورغ ويمرّ ببرلين وبراغ وينتهي إلى فيناّ، كما تتجه إلى التّمدّد غربا على طول محور باريس، ليون ومرسيليا.

ب– إقليم عبر حدودي منفتح على العالم

تعدّ الميغالوبوليس الأ وروبية على عكس الميغالوبوليس الأ مريكية واليابانية، مجالا عبر حدودي وعبر– قطري إذ تتشكّ ل من مناطق حضرية تتوزع على ثمانية أ قطار هي من الشمال إ لى الجنوب المملكة المتحدة، هولندا، بلجيكا، اللكسمبور، ألمانيا، فرنسا وسويسرا وإيطاليا، تتعدّد بها اللغات والثقافات. ولا تحول الحواجز الطبيعية التي يمثّ لها بحر الشمال في القسم الشمالي الغربي للميغالوبوليس وجبال الآلب في قسمها الجنوبي الشرقي دون تواصل مكوّ ناتها الحضرية نظرا لكثافة شبكة النّقل التي يمثل نهر الراين محورها الرئيسي إلى جانب الأنفاق المهيّأة لتيسير الاتصالات عبر جبال الآلب وهو ما يجعلها عابرة للحواجز الطبيعية. كما يتميز مجال الميغالوبوليس بالانفتاح على واجهتين بحريتين نشيطتين تيسّران ربطها بالعالم الخارجي هما بحر الشمال في الشّمال الغربي والبحر المتوسط جنوبا. وعلاوة على ذلك يتّسم مجال الميغالوبوليس بتنوّع الأوساط الطبيعية وهو ما يسهم في إثراء الأنشطة الاقتصادية وتنويعها [2 و3].

2 – مناطق حضرية مترابطة

أ– تحضّر عريق وكثيف

تحْشُدُ الميغالوبوليس الأوروبية قرابة 40 % من سكان الاتحاد الأ وروبي على ما يزيد بقليل عن عشر مساحته بمعدل كثافة يتراوح بين200 و500 ساكن/كم² [4 و5]. ويتلازم هذا الاحتشاد السكاني مع نسبة تحضر عالية تتعدّى 80 % وتَعُدُّ الأكثر ارتفاعا في الاتحاد الأوروبي. وتَعُدُّ الظاهرة الحضرية عريقة خاصّة في حوض نهر الراين الذي ينفرد بنسيج حضري كثيف تشكّل في ظلّ نموّ النشاط التجاري في العصر الوسيط وتكثف أثناء الثورة الصناعية. وتضُمُّ الميغالوبوليس الأوروبية أكثر من 60مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها مائة ألف نسمة و 23 مدينة مليونية.

ب- مناطق حضرية متعددة ومتصلة خاصة في حوض نهر الراين

تنتظم مدن الميغالوبوليس في مناطق حضرية كبرى [4 و5] تشكل شريطا من المدن المتجاورة التي تتدرّج نحو التلاحم. وتعدّ الميغالوبوليس ثمانية مناطق حضرية كبرى هي لندن الكبرى، الرانشتاد في هولندا، مثلث أ نفرس-قاند-بروكسال في بلجيكا، ليل-روباي-توركوان في الشمال الغربي الفرنسي، الراين-روهر، الراين-ماين والراين-نيكار على طول نهر الراين في أ لمانيا، و ميلانو في الشمال الايطالي في حين تظل باريس خارج مجال الميغالوبوليس. وتتميز هذه المناطق الحضرية بالتواصل رغم وجود حواجز طبيعية وذلك بفضل كثافة شبكة النقل.

3 - تركّز كبير للأنشطة الاقتصادية

أ- نسيج صناعي عريق وقوي ومتجدد

تضم الميغالوبوليس الأوروبية أكبر التجمعات الصناعية في الاتحاد الأوروبي وأكثرها عراقة كما تُعَد موطن الشّركات الصناعية الأوروبية الكبرى في مختلف فروع الصناعة. وتتركز الأنشطة الصناعية في الحواضر المينائية للواجهة البحرية الشمالية والأحواض الفحمية الداخلية: الروهر والسار وكولونيا في ألمانيا، كَمْبِينْ وبُورِينَاجْ في بلجيكا، لمبُورغ في هولندا واللورينْ في فرنسا [6]. وتدعّمت هذه الرّيادة الصناعية بتطور صناعات الجيل الثاني وباتّساع المجال الصناعي ليشمل حواضر الشمال الايطالي التي عرفت حركية صناعية متزايدة اثر الحرب العالمية الثانية. وقد عزّ زت عملية التحويل الصناعي بالأ قاليم الصناعيّة المتأزمة وما رافقها من تطوير تكنولوجي القوّة الانتاجية الصناعية للميغالوبوليس إذ تم التركيز على صناعات التكنولوجيا العالية. وتسهم الميغالوبوليس بالنّصيب الأ وفر من القيمة الجملية للإ نتاج الصناعي والقيمة المضافة الصناعية في الاتحاد الأوروبي كما تتركز بها مؤسسات صناعية ذات وزن عالمي.

ب- تركز متزايد لخدمات الثالث العالي أوجد الدور القيادي

تعَدُّ الميغالوبوليس الأ وروبية مركز القوة الاقتصادية الأ وروبية واحد مراكز الدفع الكبرى للاقتصاد العالمي إذ توفر قرابة ثلُثَيْ النّاتج الداخلي الخام للاتحاد الأوروبي وقرابة خمس الناتج الداخلي الخام العالمي. كما تعتبر من أكبر المجالات التّجارية والاستهلاكية والاستثماريّة في العالم، علاوة على ما تتمتع به من تأثير سياسي وإشعاع علميّ وثقافيّ. وتستأ ثر بالوظائف التقريرية والقيادية السياسية والاقتصادية [7] إذ تأوي حواضرها المؤسسّ ات السياسية الأ وروبية وبعض المؤ سسات الدولية [8 و9] والمقرات الاجتماعية للشركات عبر القطرية الأوروبية والأ جنبية خاصة الأ مريكية واليابانية وبورصات ذات وزن عالمي مثل بورصة لندن إلى جانب المؤسسات المالية الأوروبية والأجنبية الكبرى. كما تأوي عددا كبيرا من المؤسسات العلمية ومراكز البحث والتطوير وتحتضن المؤتمرات والملتقيات السياسية والاقتصادية والعلمية الدولية علاوة على ما يتوفر في حواضرها من متاحف ومعالم تاريخية تمثل عامل جذب ثقافي وتسهم في تنشيط السياحة وتمنحها إشعاعا ثقافيا كبيرا. و قد منحها هذا التركز المتزايد للأنشطة الخدمية عموما وخدمات الثالث العالي خصوصا وزنا اقتصاديا كبيرا ودورا قياديا بارزا في الاتحاد الأوروبي والعالم.

ج- حواضر كبرى تسهم في هيكلة المجالين الأوروبي والعالمي

أدت ظاهرة الحوضرة التي شهدها النظام الحضري الأوروبي في العقود الأخيرة إلى بروز حواضر تجمع بين تنوع الأ نشطة الاقتصادية والنزعة المتزايدة إ لى التخصص في ظل تنافس حاد بينها على استقطاب الاستثمار والشركات عبر القطرية الأوروبية والأ جنبية واليد العاملة عالية التأ هيل وخدمات الثالث العالي وصناعات التكنولوجيا العالية والاستئثار بالوظائف التقريرية والقياديّة. وتشكل هذه الحواضر عقدا لوجيستية* تنطلق منها وتنتهي إليها محاور النقل الكبرى. وقد عززت ظاهرة الحوضرة هيمنة الميغالوبوليس على المجال الأ وروبي وزادت في قدرتها على التحكم فيه وتنظيمه وهو ما أ هلها للاضطلا ع بدور الواجهة الاقتصادية التي تربط اقتصاد الاتحاد الأ وروبي باقتصاد بقية أ قطاب الثالوث وخاصة مراكزه النشيطة. ويمكن التمييز بين أربعة أ صناف من الحواضر باعتبار الوظائف والنفوذ. فعلاوة على لندن [10] الحاضرة العالمية التي تعتبر أ كثر حواضر الميغالوبوليس إ شعاعا ونفوذا في الاتحاد الأ وروبي والعالم، توجد حواضر أوروبية مثل أمستردام وبروكسال [11] وستراسبورغ وروتردام وفرانكفورت وحواضر وطنية مثل ميلانو [12] وحواضر إقليمية مثل قاند و شتوتغارت و تورينو....

II- عوامل متعددة ساعدت على تشكّل الميغالوبوليس وتنامي نفوذها

أ فضى تظافر عراقة التعمير وقدم الأ نشطة الاقتصادية من جهة، والسياسات المشتركة المرتبطة بالبناء الأ وروبي المشترك من جهة ثانية وقوة البنية التحتية في ميدان النقل خصوصا إ لى تشكل الميغالوبوليس واكتسابها خاصية التركز السكاني والاقتصادي التي تميّزها عن بقية مجال الاتحاد.

1 – إقليم استفاد من عراقة التعمير والأسبقية في التصنيع

أ– موطن تعمير عريق

يعتبر مجال الميغالوبوليس موطن تعمير عريق في القارة الأوروبية لما يختصّ به المجال الطبيعي من مزايا مساعدة أ برزها الشبكة النهرية التي يمثل نهر الراين عمودها الفقري وواجهتان بحريتان هما البحر الأ بيض المتوسط في الجنوب وبحر الشمال في الشمال الغربي مكنتا من ربط هذا المجال بالخارج. كما يتوفر هذا المجال على ثروات باطنية هامة مثل الفحم الحجري والحديد هيأت الأرضية للثورة الصناعية وأفضت إلى تشكّل مناطق صناعية في الرّوهر وفي الشمال الفرنسي وفي هولندا وبلجيكا مثّلت النواة الأولى للميغالوبوليس الأوروبية . ويشهد على عراقة التعمير قدم الظاهرة الحضرية إذ تتجاور في هذا المجال أجيال متعددة من المدن تختزن إرثا ضخما من الخبرة الاقتصادية أسهم في تشكل الميغالوبوليس وفي إكسابها نفوذا كبيرا في الاتحاد الأوروبي وفي العالم [13 و14].

ب– خبرة اقتصادية متراكمة عززت نفوذ الميغالوبوليس

تلازمت عراقة التعمير مع حركية اقتصادية انطلقت منذ بداية العصر الوسيط وتصاعدت وتيرتها بدءا بتنامي النشاط التجاري وبروز أقطاب تجارية كبرى مثل بروج (Bruges) وأنفرس (Anvers) في الشمال وجنوة والبندقية (Venise) وميلانو في الجنوب وتعززت هذه الحركية الاقتصادية بتراكم الثروات الناجم عن الاكتشافات الجغرافية الكبرى والتجارة المثلثة. وقد عزّ زت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر الطابع المركزي لهذا المجال إذ شهد ثورة علمية وتقنية عجلت بإرساء الاقتصاد الرأسمالي الصناعي وتشكلت أحواض صناعية كبرى قامت على صناعة الفولاذ والصناعات الكيمياوية مازالت تشكّ ل حتى اليوم أ هم مكونات النّسيج الصناعي الأوروبي [14]. وقد رافق إرساء الاقتصاد الصّناعي تطوّر الهياكل المالية والتجارية الحديثة[15]، ونشأ ة النظام الرأسمالي. وتدعّ م نفوذ هذا المجال بفضل حركة التوسّع الاستعماري وظلّ مركز التحكم الرئيسي في العالم حتى 1914 بفضل ما كان يرد عليه وما يصدر عنه من أ دفاق بشرية ومالية واقتصادية ضخمة وما يصاغ في عواصمه الكبرى من قرارات سياسية أ سهمت ولا تزال في توجيه الأحداث العالمية في الفترتين الحديثة والمعاصرة.

2– السياسات الأوروبية المشتركة تعزّز قوة الميغالوبوليس وتزيدها نفوذا

أسهم البناء الأوروبي في تعزيز الطابع المركزي للميغالوبوليس إذ استفادت الحواضر من أسبقية انتمائها إلى الأقطار المؤسسة للاتحاد الأ وروبي وغنمت من السياسات المشتركة ما عزز التركز السكاني والاقتصادي بها وزاد في نفوذها الأوروبي والعالمي.

أ– دور سياسة التنمية الإقليمية

اضطلعت سياسة التنمية الإ قليمية بدور بارز في هذا المضمار بواسطة المبادرتين الأوروبيتين **أوربان*** و**تنمية الأقاليم الحدودية***. وتهدف المبادرة الأوروبية أوربان إلى إ سناد عملية التنمية في المدن الأوروبية عبر تأ هيل المناطق الحضرية المتأ زمة ودعم المؤ سسات الاقتصادية والرفع في قدرتها التنافسية، أ ما المبادرة الأوروبية "تنمية الأقاليم الحدودية" فقد أ عطت دفعا كبيرا للتعاون عبر الحدودي وخاصة بين الأقاليم الحدودية على طول نهر الراين. وتستفيد المبادرتان من تمويلات توفرها **الصناديق الهيكلية الأوروبية***.

ب– دور سياسة النقل المشتركة

أسهمت مشاريع النقل المندرجة ضمن الشبكة عبر– الأوروبية في تعزيز ترابط حواضر الميغالوبوليس والرّفع في قدرتها على استقطاب السّكان والأنشطة الاقتصادية، وبسط نفوذها على الأقاليم الطرفية الشمالية والشرقية والجنوبية. وتتضمن مشاريع النقل المشتركة المزمع انجازها حتى سنة 2020 محاور نقل تتخذ اتجاهين: اتجاه شمال– جنوب ييسر الاتصال بين التجمعات الحاضرية الكبرى في الميغالوبوليس ويلحق بها

الأ قاليم الطرفية الجنوبية والشمالية عموما، واتجاه غرب– شرق يمكن من بسط هذا النفوذ على الأقاليم الطرفية خاصة في أوروبا الوسطى والشرقية.

ج– دور البناء الاقتصادي المشترك

أدى إلغاء الحواجز الجمركية وبعث السوق الموحدة وتوحيد العملة الأوروبية إلى تنامي الأدفاق المالية وأدفاق السلع وزاد في تحرّكية اليد العاملة والشركات الأوروبية داخل المجال الأوروبي وكان إقليم الميغالوبوليس بحكم موقعه ومقوّماته البشرية والاقتصادية أكثر أقاليم الاتحاد الأوروبي استفادة من الاندماج الأوروبي. وهكذا أسهمت السياسات المشتركة في تعزيز المكانة المركزية للميغالوبوليس في اقتصاد الاتحاد الأوروبي ودعمت نفوذها الإقليمي والعالمي.

3– شبكات نقل واتصال كثيفة تربط مراكز الميغالوبوليس

ساعدت شبكات النقل على التركّز البشري والاقتصادي في حواضر الميغالوبوليس وعلى ترابطها والرّفع في قدرتها على استقطاب السكان والأنشطة الاقتصادية.

أ– نقل بحري ونهري نشيط

تمثل موانئ الواجهة الشمالية بوابة الميغالوبوليس وتأوي أ كبر ميناء في أ وروبا والثاني في العالم وهو ميناء روتردام. وتستقطب هذه الواجهة القسم الأوفر من صادرات أقطار أوروبا الوسطى والشرقية وأقطار أ وروبا الشمالية الغربية وبعض الأ قطار الجنوبية (ايطاليا) كما تؤمّ ن واردات هذه الأ قطار إ ذ تنتهي إليها محاور النقل الحديدي والطرقي والنهري وقنوات نقل المحروقات [16 و17].

كما يمثّ ل نهر الراين طريقا سيارة مائية تمتد على قرابة 800 كم قابلة للملاحة النهرية بفضل أعمال التهيئة التي شهدها منذ القرن التاسع عشر وبفضل تهيئة الأ نفاق والممرات العابرة للأ لب، وهو يربط بين موانئ الواجهة الشمالية والبحر المتوسط، كما يرتكز على عقد لوجستية أهمها فرانكفورت وكولونيا وأكبر ميناء نهري في العالم هو دويسبورغ.

ب– شبكات كثيفة من الخطوط الحديدية والطرقات

تشكل خطوط النقل الحديدي والطرقي محاور كبرى تتجه خاصة من الشمال إ لى الجنوب مثل الخط الحديدي ميلانو– بال–فرانكفورت– كولونيا– أ مستردام والطرقات السيارة الموازية لنهر الراين التي تتخذ نفس الاتجاه وهي تربط حواضر الميغالوبوليس وتمثل عمودها الفقري. وتعرف الطرقات السيارة اكتظاظا كبيرا يتم السعي إلى التخفيف منه بإنشاء محاور نقل جديدة مثل الخط الحديدي فائق السرعة باريس– ليل– امستردام– كولونيا ومحاور جديدة تتجه من الغرب إلى الشرق تربط الميغالوبوليس بالأقاليم الطرفية وممرات مخصصة لنقل البضائع.

ج– شبكة مطارات نشيطة تدعم النفوذ العالمي للميغالوبوليس

تستفيد الميغالوبوليس من شبكة مطارات [18] هي الأ كبر في أوروبا أ همها مطارات لندن وباريس وفرانكفورت وشبكة اتصالات حديثة تربط بين مراكزها الكبرى وتيسر ربطها بالمراكز الاقتصادية الكبرى في العالم. لقد منحت هذه العوامل المختلفة الميغالوبوليس الأ وروبية قوة جذب كبيرة ومتزايدة ونفوذا إقليميا وعالميا.

الخاتمة

تمثل الميغالوبوليس مركز القوة الأ وروبية لكن ما تشهده من تركز قوي للسكان والأ نشطة الاقتصادية مقارنة بباقي مجال الاتحاد يعدّ من الاختلالات الواجب تداركها. وتلازما مع الحرص على الحفاظ على قوّة الميغالوبوليس ونفوذها ضمن مجال عالمي معولم، تسعى سياسة تنظيم المجال في الاتحاد الأوروبي إلى خلق مجال متعدد المراكز بالاعتماد على مثال **تطوير المجال المشترك*** قصد الحدّ من هذه الاختلالات وتحقيق الإ دماج الكامل للأ قاليم الأ وروبية في الاقتصاد العالمي وتحقيق التنمية المتضامنة التي تمثل واحدا من الأهداف الأساسية للبناء الأوروبي.